خطبة الأمام الحسين (عليه السلام) في يوم عاشوراء ما بين المثول والمحاججة

أ.د. ساجدة مزبان حسن
كلية التربية للعلوم الإنسانية-ابن رشد/ جامعة بغداد

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد ...

فيعد الخطاب السياسي أكثر انتشاراً ، وأقوى نفوذا فضلاً عما يمتلكه من تقنيات تواصلية وتأثيرية لا تتوافر في الخطابات الأخرى ، وهذا ما يجعله يتوازى معها وينافسها .

ونظراً لأهمية الخطاب الحسيني الذي بات يحتل موقعاً مهماً داخل المنظومة المعرفية بشكل قوي وفاعل ، وهذا يعود إلى ثرائه وقدرته على تخطي الحدود المكانية والفواصل الزمانية والتموقع في الفضاءات الثقافية .

صارت خطبه (عليه السلام) رمزاً لكلّ الثوار والمناهضين للظلم والطغيان والانحراف عن المنهج السوي ، ففي كلّ عاشوراء لنا فيها جديد نظفر بالمزيد من العظات والعبر ، وإقامة المعالم الواضحة التي لا تقبل المساومة والجدل في قليل أو كثير.

وجاء بحثي هذا على مطلبين الاول يحمل عنوان (الخطاب من المنظور اللغوي والاصطلاحي والمنظور الادبي)أما المطلب الثاني فجعلته تحليلا لخطبة الامام الحسين (عليه السلام)في يوم عاشوراء ولم أسهب فيها كوني محددة بعدد معين خشية الاطالة والخروج عن توصيات المؤتمر والله من وراء القصد .

المطلب الاول :

الخطاب من المنظور اللغوي والاصطلاحي

لابد من ان نعرج على المفهوم اللغوي الذي جاء بمعنى مراجعة الكلام (ينظر العين مادة نصص)،أو هو المواجهة في الكلام (ينظر : أساس البلاغة ٢٥٥١١)،وجاء في المعجم الوسيط :"خاطبه مخاطبة ،وخطابا :كالمه وحادثه ،وخاطبه :وجه اليه كلاما ...والخطاب الكلام ،وفي القرآن الكريم (فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب)"سورة ص ٢٣"

ويشير التهانويّ في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم هو "توجيه الكلام نحو الغير للافهام ،ثم نقل الكلام الموجه نحو الغير للافهام .وقد يعبر عنه بمايقع به التخاطب .قال في الاحكام : الخطاب اللفظ المتواضع عليه المقصود به افهام من هو متهيءلفهمه.فاحترز باللفظ عن الحركات والاشارات المفهمة بالمواضعة ،وبالمتواضع عليه من الاقوال "(كشاف ٧٤٩١).

أما في الاصطلاح فنجده يقودنا الى فروع معرفية كثيرة ،اذ كان هذا المصطلح مدار البحوث والدراسات في العلوم الانسانية ،ولاسيما علم النفس ، وعلم الاجتماع ،واللسانيات والفلسفة التي استحوذت الدراسات فيها عليه ، وتناولته بآليات متعددة اذ أفادت من الافكار والمبادىء للعلوم كافة ،ومن ثم أسست نظرياتها اللسانية على تلك الافكار .

ففي المنظور اللساني نجد أن مصطلح خطاب يسمى ب "تحليل الخطاب "يحيل على نوع من أنواع تناول اللغة ،أكثر مما يحيل على حقل بحثي محدد ؛فاللغة في الخطاب لا تعد بنية اعتباطية ، بل نشاطا لافراد مندرجين في سياقات معينة .والخطاب بمعناه هذا لايحتمل صيغة الجمع ؛فيقال (الخطاب)و(مجال الخطاب)و(عالم الخطاب)...وسواها ولما كان الخطاب يجب أن يدمج بعايير غير لغوية لذا لايمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف .(ينظر دراسة لسانية للعلاقات النصية في مطولات السياب ٦٣-٦٤).

واللغة من حيث هي نظام مشترك بين أفراد الجماعة اللغوية ،مخالفة للخطاب من حيث هو استعمال محدد لهذا النظام ،وقد يتعلّق الامر بموقع الخطاب في حقل خطابي معين ؛مثال ذلك : الخطاب الاسلامي ،والخطاب السوريالي والخطاب الشيوعي وغيرها أو يتعلّق بنوع الخطاب ؛نحو: الخطاب الاداري والخطاب السياسي الذي نحن بصدده في هذا البحث والخطاب الادبي والخطاب الصحفي وغيرها ،او ما يتعلق بصنف من المتكلمين مثل خطاب ربات البيوت او خطاب الممرضات .

فالخطاب في أحد معانيه الاصطلاحية هو :اللغة المستعملة أو استعمال اللغة ،لا اللغة بوصفها نظاما مجردا .

يرى قسم من اللغويين أن الكلام الذي يقال في حلقة دراسية يمثل كلّه خطابا ،بمعنى عملية تبادل للافكارتكتسي ثوبا لفظيا .في حين يرى آخرون أنبيانا واحدا في الحلقة يعدخطابا ،سواء أطال أم قصر (ينظر :المصطلحات الادبية الحديثة :١٩)

ويجب أن لانغفل التداخل بين مفهومي النص والخطاب اذ هناك من لايرى فرقا بينهما فهذا رولان بارت يرى "النص يظلّ في كلّ الاحوال متلاحما مع الخطاب ،وليس النص الا خطابا ،ولايستطيع أن يوجد الا عبر خطاب آخر"(علم النص:٤٤)

وفي المنظور الادبي للخطاب نلحظ التوجهات اللسانية طاغية في تحليل الخطاب الادبي وذلك؛ لان المادة الاساسية في بناء الادب هي اللغة . بينما في اللسانيات هي الدراسة العلمية لها ،ولمظهرها الحسي الذي يتجلى من خلال الكلام (ينظر:تحليل الخطاب الادبي :٣١)

ومما لاشك فيه أن ما أحدثته اللسانيات من تفرع المناهج النقدية في تحليل الخطاب الادبي تركت آثارا واضحة في مسار النقد الادبي واتجاهاته .

المطلب الثاني:

وقفة تحليلية لخطبة الامام الحسين (عليه السلام) في يوم عاشوراء :

تتعدد قراءة النص في ظل تطور المناهج اللسانية الحديثة ،وهذا لايعني قطعا نهاية القراءة ،واذا أخذنا بنظر الاعتبار أن التراث الحسيني معين لاينضب من الدلالات والمعاني فلا شك أن ذلك يفسح المجال رحبا للدراسة والتحليل على أكثر من قراءة .

تهدف هذه الدراسة الى الوقوف على خصوصية هذه الخطب ،اذ جاء الخطاب فيها للناكثين بهدف الفصل الحاسم بين الحق والباطل ،فضلا عن اقامة المعالم الواضحة التي لاتقابل المساومة .

وقد زادت هذه الخطب أهمية منزلة قائلها فهو الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام). وقد وسم والده قبله بأنه أفصح من سحبان وقس وشهد له بالفصاحة والبلاغة أعداؤه قبل أنصاره .

وزادت أهميتها من روافده الثقافية إذ لاشك أنَّ الخطاب يحملُ شخصيةَ قائله وانطباعاته وثقافته فلا ريب فيمن كان محمد(صلى الله عليه وآله) جدّه وعلي وفاطمة (عليهما السلام) مربيه ومخرجيه والعنايةُ الالهيةُ تعده وترفده فهو تربى في بيت نزل فيه جبرائيل (عليه السلام) يرتلُ الذكر الحكيم.

أما شخصيته (عليه السلام) فقد شحذت الخطاب وفعلته وأغنته بالدلالات والأفكار ومما لا ريب فيه أن الخطاب المنطوقَ أكثر تأثيراً ؛ لأنه مباشر وعفوي في ظاهره ، ويوظف العناصر الصوتية والحركية والهيأة فتكتمل دلالات الألفاظ إذ لطالما كانت الكلمةُ طريقَ الإصلاح الأول ، وبها دلف الأنبياء والمرسلون إلى القلوب محاورين النفوس متحدثين إلى الضمائر وأقاموا الحجج والبراهين حتى هدي إلى الحقّ خلق كثير .

لذا انبرى الإمام(عليه السلام) من الكلمة الطيبة راغباً في الاصلاح الذي هو غايته من ثورته المباركة .

وتتشكل لغةُ الخطاب في ضوء موضوع الخطاب وعلاقة المتكلم بالمتلقي ، ليختار المتكلم لغةً تناسبهم على تعدد مشاربهم ومستوياتهم فهم أخلاط متباينة في التلقي والفهم وعلى المتكلم أن يختار لغة تواصل مناسبة .

أراد الإمام (عليه السلام) أن يؤكّد مسؤوليته ويعيد الوعي إلى جموع الناس الذين استحوذت عليهم الظُلمة في أمر الأمة إذ لم ينهضوا لنصرة الحق فخاطبهم بالنصيحة والتوجيه والتشجيع والتوبيخ و بكلّ أساليب الحوار لاتخاذ الموقف المطلوب ، فكانت خطبته قبساً من نور الكلام الإلهي يضيء بفصاحة المنطق البدوي .

ابتدأ خطبته في يوم عاشوراء بقوله بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي وعلى الملائكة والأنبياء بقوله: " عباد الله ، اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر ... ".

إذ ألفتَ هذه العبارة العتبةَ الأولى التي يدلف بها المتلقي إلى الخطبة ، ومن هنا تأخذُ العلامةُ السيميائية المهمة للولوج إليها وهو ما عرف بالتغريض في لسانيات النص(١).

ويعني : افتراض أن الجملة الأولى ، في أي نص لها الحظُ الأوفر في التأثير في الجمل التالية ؛ لأن حركة النص حركة تراكمية خطية وعمودية[٢].

وختمها بقوله : " عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون . أعوذ بربي وربكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب " لينهي الخطاب بآيات قرآنية ضمنها الإمام (عليه السلام) متوجهاً إلى الله ، وعازماً على ألاّ يفتَّ في عضُده عن قرار الثورة أحد ، إذ أبى سيد الشهداء(عليه السلام) الاستسلام وهذا يتفق مع طبيعته وإبائه وشممه الذي رفض أن يبايع يزيد وعارض توليته.

ولما كان الإمام الحسين(عليه السلام) يخطب في قوم نكثوا عهدهم معه وقلبوا له ظهر المجنّ وحاولوا أن يصموا آذانهم عن الحق وأبوا الانصات إليه خاطبهم بأسلوب النداء وهو أقوى أنواع الجذب والانتباه بقوله: " أيها الناس إن الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال " .

وقوله : " أيها الناس انسبوني من أنا ، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ ".

وقوله: " فنادى يا شبث بن ربعي ، ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الاشعث ويا زيد بن الحارث ألم تكتبوا إلي أن اقدم قد أينعت الثمار ، واخضرَّ الجناب وإنما تقدم على جند لك مجندة " ومما لاشك فيه أن المفردة في الخطبة تنتقى على وفق المضمون القابع في نسيجها فهي تدخر في أحشائها صوراً ومشاعر كامنة لفّت نفسها لفّاً حول معانيها .

أما صفة القوم الذين خطب فيهم الإمام (عليه السلام) فيمكن تلمسها بقسم من أقواله فهم

" وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم وأعرض بوجهه الكريم عنكم ".

وقوله: " فنعم الرب ربنا ، وبئس العبيد أنتم ".

وقوله: " هؤلاء قدم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين " فقد اجتمعوا على قتله وفي هذا سخط لله ولرسوله حيث قال المصطفى(صلى الله عليه وآله) من أحبَّ الحسن والحسين فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني ".

وأنهم بئس العبيد وأنهم كفروا بعد إيمانهم وهي غاية ما يستطيعه من إلقاء الحجة على هذا الجمهور الذي أيده بالبيعة واستقدمه بالرسل ثم نكث عهده !!! .

إن ردود الأفعال في المتلقين مؤشر على نجاح التلقي وهذا ما نراه جلياً في موقف عدد من أفراد جيش عمر بن سعد فالتحق الحر بن يزيد الرياحي بمعسكر الإمام الحسين(عليه السلام) وطلب منه العفو والمغفرة والتوبة عما بدر منه فثمن الإمام موقفه وميز سلوكه عن بقية الجيش المعادي فقال : أنت الحرُّ كما سمّتك أُمُّكَ ، أنت الحرُّ في الدنيا والآخرة .

فالحسين وأصحابه آثروا المبادئ والمثل ولم يفضلوا عليها أطايب الحياة إذ " لا تخلّد الأيام إلاّ الذين عاشوا للمبادئ والقيم والأخلاق ، ويهمل

الزمن في رمال النسيان من عاداهم من أصحاب المصالح العاجلة والأغراض الزائلة "[٣].

روافد البحث:

- القرآن الكريم .
- الامام الحسين ،غريب ،د.ت.
- أساس البلاغة ،الزمخشري،دار بيروت ،١٤٠٤هـ.
- تحليل الخطاب الادبي وقضايا النص،د. عبد القادر الشرشار ،منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق ،٢٠٠٦.
- تحليل الخطاب ،براون ويول ترجمة وتعليق :د.محمد لطفي الزليطي ود.منير التريكي،جامعة الملك سعود ،الرياض ،١٩٩٧.
- علم النص:رولان بارت ترجمة د.محمد خير البقاعي،سلسلة دراسات أدبية ،الهيأة المصرية العامة للكتاب ،د.ط.١٩٩٨.
- كتاب العين ،الخليل بن أحمد الفراهيدي،تحقيق د. مهدي المخزومي ود.ابراهيم السامرائي،دار الشؤون الثقافية بغداد ،١٩٨٤.
- كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم التهانوي تحقيق د.رفيق العجم وآخرين ،مكتبة لبنان ناشرون ،١٩٩٦.
- لسانيات النص مدخل الى انسجام الخطاب ،محمد خطابي،ط٢،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ٢٠٠٦.
- المصطلحات الادبية الحديثة ،د.محمد عناني ،الشركة المصرية العالمية للنشر .لونجمان .ط١,١٩٩٨.
- معجم الوسيط ،مجمع اللغة العربية ،القاهرة دار الشروق الدولية ،ط٤ ٢٠٠٤.

الهوامش:-

(١) لسانيات النص / خطابي : ٥٩ .

(٢) تحليل الخطاب ، بروان ويول : ٥٠ .

(٣) الإمام الحسين ، غريب : ١٦٤ .